التمهيد

أ ــ الصورة الأخيرة للشعر الجاهلى زمن حسان

الشعر والبادية

كانت العرب أمة بدوية ، تحيا حياة طبيعية تلائم بيئتها ، تحيط بهم الصحراء الواسعة ، وتكنفهم الرمال الشاسعة ، وتظلهم السماء الصافية ، ويجنهم الليل الساجى ، وتحرقهم الشمس ، ويحنو عليهم القمر ، وتؤنسهم النجوم ، وتتجاوب حولهم أصوات الوحش . وتجرى الرياح عاتية مزمجرة ، حتى إذا أقلت سحاباً تتبعوا مواقعه ، ورعوا ما تنبت الأرض من آثاره . فالجدب شامل والطبيعة بخيلة . الإبل عماد حياتهم ، والخيل معقل فرسانهم ، وفى الأنعام رزقهم ، منها يأكلون ويلبسون ويتخذون متاعهم ، وعليها يحملون . يحيون كما تحيا الكائنات فى الصحراء ، طليقة من كل قيد ، الفطرة قانونهم ، وتنازع البقاء سبيلهم ، والقبيلة هى الدرع الحصينة التى تحتمى بها جماعاتهم ، بها يلوذون وعن حماها يدافعون . ومن هذه البيئة نبتت أخلاقهم ونشأت عاداتهم .

ولما كان الشعر مرآة حياة الأمة ، وصورة نفوس أبنائها ، فإنك لترى على صفحة الشعر الجاهلى صورة واضحة لتلك الحياة العربية ، تترسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم ، وملاعب ولدانهم ، ومواقع ديارهم ، وآثار منازلهم ، وموارد مياههم ، ومجالس سادتهم ، وعتاق خيلهم ، وأوصاف سيوفهم وآلاتهم ، وكثيراً من أيامهم ووقائعهم ، وعاداتهم وأخلاقهم . ولو أنك نظرت فى القصيدة العربية لرأيتها صورة تتمثل فيها تلك الحياة البدوية ، من الطلل والوحش ، والقفر والرمل ، والليل والخيل ، والسحاب والغيث ، والسماء والنجوم ، وتلك المناقب والشمائل التى كانوا يتمادحون بها ، من الجود والقرى والأنفة والنجدة والشجاعة والوفاء وحفظ الجوار والثأر والغارة على الأحياء والتفاخر بالأنساب ، التى هى فى الواقع فرائد هذا العقد المنظوم من الكلام .

فنون الشعر الجاهلى

وسترى تلك الطبيعة توجه فنون الشعر ، التى كانت فى الشطر الأخير من العصر الجاهلى دائرة بين النسيب والفخر والمدح والهجاء والرثاء والوصف ، والتى لم تكن لتستغنى عن الاعتذار والحكمة ، والتى يرى بعض العلماء إدماج بعضها فى بعض ، وينتهى بها بعضهم إلى المدح والهجاء[1] ، وهى ضروب ذلك الشعر العربى الغنائى . وستراها أيضاً تتحكم فى المذهب المألوف عند أكثر الشعراء، حين يتناولون أغراضهم ومعانيهم ، فيشتقون مثلهم ومقاييسهم مما بين أيديهم وما حولهم ، وما يقع فى دائرة حسهم وفكرهم من المشاهد . فمعانيهم فطرية فيها سذاجة البادية ، خالية فى الجملة من الغلو المفرط ، والمبالغات المفضية إلى الكذب ، تصور عواطف نفوسهم وما يحيط بهم فى إخلاص وصدق وسذاجة . هى سر ما فى شعرهم من جمال وظل . وقد غبر الشعراء دهراً طويلا على هذا ، لا يتكلفون فى قولهم ، كما لا يتكلفون فى لباسهم وطعامهم وشرابهم وسائر أمورهم ، وكأن رائدهم بيت زهير بن أبى سلمى :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ويمتد أثر بيئتهم إلى منهج القصيدة وكيفية تأليفها ، فقد كان البدو أكثر الناس حبًّا ، وأشدهم به وجداً ، لجريهم فى عنان الطبيعة ، وحدة عواطفهم ، وفراغهم وخلو بالهم برضاهم عما كانوا عليه فى حياتهم ، ولأنهم كانوا أهل نجعة ، فإذا التقت القبائل فى ترحالها أنسوا من وحشة ، وجدد لهم اللقاء مودة وائتلافاً ، فإذا افترقوا أحدث الفراق بهم شوقاً وأشجاناً ، فبكى كل محب هواه ، وغنى على ليلاه ، فإذا عادوا إلى تلك المرابع والمصايف هاج أشجانهم ما يلقون من آثار أحبابهم ورسوم ديارهم ، فساءلوا الدمن واستخبروا الأطلال ، لذلك كان النسيب والتشبيب والتغزل[2] من أهم فنون القول عندهم ، يفتتحون به قصائدهم وإن حوت القصيدة أغراضاً أخرى ، لمكانه من قلوبهم ، ولأنه جذوة تحمى بها نفوسهم فتنشط للقول ، ولما فيه من متاع النفس وارتياح السمع والخاطر ، ولأن المرأة كانت هى كل الجمال

---

(١) العمدة ١/ ٧٧ و ٧٨ .

(٢) هذه الثلاثة هى ذكر النساء والشوق إليهن ووصف أحوالهن وما يتصل بهن .

فى آفاق البادية ، فجعل العربى حديثه كله إليها ، فذكرها عند الافتخار بشجاعته وكرمه ، وعند التعرض لعدوه وذمّه ، وعند صبابته وعشقه ، وعند حله ورحلته ، وفى كل مقام وعلى كل حال . وكثيراً ما يتبعون الغزل بوصف قطعة من البادية ، يحسنون وصلها بما يتحدثون عنه ، وقد يكون الموصوف الفلاة أو الناقة أو الفرس أو الطريق أو الليل أو السلاح أو الصيد أو المطر أو شيئاً غير ذلك ، ثم ينتهون إلى غرضهم من مدح أو فخر أو هجاء .

(ب) أثر الإسلام فى الشعر وموقفه منه

وكان أكثر شعراء الجاهلية من الأشراف والسادة والأمراء وأهل الفروسية والحرب ، وأكثر شعرهم فى الحماسة والفخر بمآثرهم ، والتطاول بأنسابهم والعصبية لقبائلهم ، والتباهى بأيامهم وغلبهم على أعدائهم ، إلى تزيين الخمر ، والهجاء ، والتغزل الماجن ، فلما جاء الإسلام كان هدفه تطهير النفوس من آثار العصبية الجاهلية ، وتدعيم أساس الوحدة الدينية ، ومحاربة تلك النزعات البدوية ، وجمع العرب على كلمة سواء ، فلم تبق تلك الحاجة إلى الشعر والشعراء ، وهان أمره وأمرهم ، واشتغل أكثرهم بالحرب والجهاد فى سبيل الله ، وانصرفت القرائح الشاعرة إلى الخطابة ، بعد أن صارلها الشأن فى استنهاض الهمم وتوجيه الناس إلى الغزو والجهاد ، وأصبحت سبيل الرسول والخلفاء والقواد فى بث الدعوة ، يخاطبون بها العقول ، ويقرعون بها الأسماع .

القرآن والشعر

ونزل القرآن بلسان عربى مبين ، فى أمة عربية ، الكلام أرقى صناعتهم وأجل بضاعتهم ، وهم فحول البلاغة وأمراء البيان ، وأرباب الأنفة والحمية . جاء والشعر ديوان العرب ، ومجمع مكارمهم ، ومنبع مفاخرهم ، ومظهر نبالتهم ، ومعرض فصاحتهم ، وموضع الإكبار من نفوسهم ، فبهرهم بيانه ، وأذهلهم افتنانه ، فأسلم له من استضاءت بصائرهم ، ونزع الله الغشاوة عن قلوبهم ، وصد عنه غيرهم ، مكابرة وعناداً ، وحماقة وضلالا ، وصرفهم ذلك عن الولوع بالشعر ، والتنافس فيه ،

وحول أفكار المؤمنين عن فنونه وأغراضه المنحرفة عن سنن الإسلام والحق ، وبغض إليهم تلك الفنون الجامحة ما جاء فى الشعر والشعراء من قوله تعالى: « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » وقوله تعالى: « وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » وقوله صلى الله عليه وسلم: « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه[1] خير له من أن يمتلئ شعراً »[2] .

وقد توهم بعضهم أن الإسلام يحارب الشعر كله ، ويذم الشعراء جملة ، لذلك يحسن فى هذا المقام أن نحاول تبيين رأى الإسلام فى الشعر ، وموقفه من الشعراء .

فلم يهوّن الإسلام من أمر الشعر لأنه فى ذاته فن من القول ممقوت ، ولم يذم القرآن الشعراء لأنهم أهل صناعة بائرة ، وحرفة منكرة ، فهم جميعاً قوم منكرون ، وإنما كان ذلك لسببين : أحدهما راجع فى الشعر لمعناه ، والآخر راجع لمبناه ، أما الأول فلأن أغلب الشعر كما تقدم كان أداة تخدم الأغراض الجاهلية ، وتثير كوامن العصبية ، وتغذى طبائع التناحر البدوية ، وتوقظ الفتن النائمة ، بما فيه من تفاخر وتطاول ، وملاحاة وهجاء وكذب وتزيين باطل وتحسين لذات محرمة ، والإسلام يعمل على انتزاع تلك العادات ، وتغيير تلك الأخلاق ، واستلال هذه السخائم ، والقضاء على هذه المآثم ، والسير بالعرب إلى وحدة ترأب الصدع ، وتلم الشتات . فالذم قد تناول الشعر إذاً من ناحية أغراضه وموضوعه ، لا من حيث هو شعر .

وأما الآخر فلأن العرب كانت أمة خيالية حماسية شاعرة ، وللشعر سلطان كبير على عقولهم ، وأثر عميق فى نفوسهم ، وقد كان من جهة وزنه ونغمه وجرسه ونظمه وحسن تأليفه المثل الأعلى للبلاغة العربية ، فلما نزل القرآن سمعوا به قولا عجباً ، اهتزت له مشاعرهم ، حتى إن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، كانوا يخرجون ليلا فيستمعون إلى رسول الله يقرأ القرآن فى صلاته ،

---

(١) يريه : يفسده والماضى ورى .

(٢) الطهطاوى : هداية البارى ٢/٨٨ . الخازن : تفسيره ٣/٣٧٣ .

من حيث لا يعلم كل بمكان صاحبه ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا[١] . وسمع عمر ابن الخطاب القرآن ، فرق له قلبه حتى بكى ، وذهب إلى رسول الله فأعلن له إسلامه[٢] ، وقد تحداهم أن يأتوا بآية مثله ، فلما تبين عجزهم ، وغلبوا على أمرهم ، تحيروا فيما يصفون به الرسول ، وأى مطعن يوجهونه إلى القرآن ، فقالوا هو شاعر ، لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه ما لا يلحق ، وقال لهم الوليد ابن المغيرة — وهو معهم — « لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعَذْق ، وإن فرعه لَجَنَاة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر »[٣] .

فذم الله الشعراء ، ونفى الشعر عن النبى ، تكذيباً لما زعمه المشركون من أنه شاعر ، وليؤكد أن القرآن ليس من ذلك الطراز الشعرى الساحر ، الذى يؤثر فى النفوس بوزنه وقافيته ، وبما فيه من تزيين وتخييل ، وليدفع عن النبى مظنة اصطناعه لأنه ليس بشاعر ، فأبعد بذلك القرآن عن نطاق الشعر وأسباب تأثيره ، كما أبعد الشعر عن نطاق القرآن وأسباب إعجازه .

وربما كان من أسباب ترغيب الناس عن الشعر الميل إلى صرفهم عن الافتتان به ، وهو كتاب مفاخرهم ، وحافظ مآثرهم ، وسجل أيامهم ، ومجمع آدابهم ، وآية الجمال الدائرة بينهم ، تهفو إليه قلوبهم ، وتصغى إليه أسماعهم ، وسلوك سبيل الحكمة بتوجيه الناس إلى الدعوة الجديدة ، والقرآن الكريم وآياته .

وقد اتفقت كلمة المفسرين[٤] لقوله تعالى: « والشعراء يتبعهم الغاوون . . الآية » على أن المراد الشعراء الذين كانوا يقولون فى الأغراض الجاهلية ، والمشركون الذين كانوا يؤذون رسول الله ويهجونه ، ويجتمع إليهم — فى باطلهم وكذبهم وما هم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٣٣٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٣٦٦ وما بعدها .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ١/٢٨٩ .

(٤) الآلوسى : روح المعانى حـ ١٩/١٤٥ وما بعدها ، الزمخشرى الكشاف ٣/١٣٠ وما بعدها ، الطبرى : جامع البيان فى تفسير القرآن ١٩/٧٨ وما بعدها ، أبو السعود : هامش التفسير الكبير للفخر الرازى ٧/٣٠١ ، الرازى : التفسير الكبير ٦/٤٣٢ — الخازن : لباب التأويل فى معانى التنزيل ٣/٣٧٣ =

عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب والنسيب بالحرم — الغواة والسفهاء والأعراب ، فيستمعون لهم ويتبعونهم ويطرقون كل سبيل من القول ، لا يبالون بالغلو ومجاوزة الحد ، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة ، وأشحهم على حاتم ، وقد يمدحون الشيء بعد أن ذموه . ويعظمونه بعد أن استحقروه ، فهم لا يطلبون بشعرهم الحق والصدق ، لذلك استثنى الله الشعراء المؤمنين الصالحين الذين لا يصرفهم الشعر عن ذكر الله ، والذين إذا قالوا شعراً قالوه فيما يليق أن يقال فيه من غير مأثم ، والذين انتصروا بشعرهم ممن هجاهم وظلمهم ، ونال من دينهم وكتابهم ورسولهم ، وإن هجوه وآذوه ، كحسان بن ثابت ومن كان معه من شعراء المسلمين ، ويقول أبو السعود العمادى فى تفسيره[1] : « إن هذا القول مسوق لإبطال ما قالوه فى حق القرآن من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام ، بعد أن أبطل ما قالوه من أنه من قبيل ما تلقى الشياطين على الكهنة ، بما مر من بيان أحوال الكهنة المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام » . وبهذا يقول الفخر الرازى أيضاً[2] . كما قال المفسرون لقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له »[3] إن الرسول حين تحدى العرب بالقرآن فأعجزهم وهم أهل الفصاحة واللسن زعموا أنه شاعر ، وأن القرآن من قبيل الشعر ، وأن إعجازه قد جاء من هذه الناحية . مع أن القرآن واضح المباينة للشعر لفظاً ومعنى ، لخلوه من الوزن والتقفية ، ومغايرته لنظم الشعر وأسلوبه ، وبعده من الكذب والتخييل وتزوير القول . أما الشعر فأعذبه أكذبه على ما قالوا . وكيف يكون القرآن شعراً وما كان محمد شاعراً . فما علمه الله الشعر ، وما ينبغى

= النسفى : مدارك التنزيل وحقائق التأويل هامش الخازن ٣/٣٧٣ . الخطيب الشربينى : السراج المنير ٣/٣٢ ، البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل هامش تفسير الخطيب الشربينى ٣/٤١٦ .

(١) هامش الفخر الرازى ٧/٣٠١ .

(٢) تفسيره ٦/٤٣٢ .

(٣) الطبرى : جامع البيان ٢٣/١٩ — الزمخشرى : الكشاف ٣/٢٩٢ — النيسابورى : هامش الطبرى ٢٣/٣٢ — الآلوسى : روح المعانى ٢٣/٤٦ — الخطيب الشربينى : السراج المنير ٣/٢٩٤ — فخر الدين الرازى ٧/١١٠ — أبو السعود العمادى : هامش الفخر الرازى ٧/٥٢٥ . الخازن : لباب التأويل فى معانى التنزيل ٤/٨ — النسفى : مدارك التنزيل ٤/٨ .

له ، ولا يليق بجليل شأنه وعالى قدره أن يكون من الشعراء . مدّاحاً أو هجاء ، أو خائضاً فيما يخوضون، أو مقيّداً من قيود الشعر بما قد يجر نقصاً فى المعنى ، وفى هذا نفى للشعر عن النبى . وتنزيه للقرآن تبعاً لذلك عن أن يكونه . فما هو إلا حكم وعقائد وشرائع وهدى وموعظة حسنة وذكر للعالمين ، وقرآنٌ من لدن رب العالمين ، وليس فى نفى الشعر عن النبى غضٌّ من قدر الشعر ، فقد وصفه القرآن بالأمّيّة ، ولو صح أن كونه غيرَ شاعر قدح فى الشعر لكانت أميته قدحاً فى الكتابة . وما يقول بهذا أحد . أما قوله صلى الله عليه وسلم : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَريه خير له من أن يمتلئ شعراً » فقد أراد به ذلك اللون المذموم من الشعر ، الذى وضحه المفسرون فيما سلف ، وعنى به الذين يفتنهم الشعر حتى يغلب على قلوبهم فيملأها ، ويستولى على نفوسهم فيملكها ، ثم يشغلهم عما عداه ؛ من إقامة فروض الدين وذكر الله وقراءة القرآن وعمل الصالحات . فشأنه عندئذ شأن ما جرى هذا المجرى من الشواغل الصارفة عن الله واليوم الآخر . منهىٌّ عنه مذموم .

فليس الشعر كله مذموماً ، وليس المذموم منه مذموماً لأنه شعر ، فما الشعر إلا كلام ، الحسن والقبيح فيه راجعان إلى المعنى . وما دام المعنى جميلا فالمنظوم أكثر جمالاً ، وأحسن مثالاً ، ولله در البوصيرى إذ يقول :

فالدر يزداد حسنًا وهو منتظم ... وليس ينقص قدراً غير منتظم

وإنما جاء فيه ما جاء للأسباب التى تقدمت ، والملابسات التى ذكرت ، فالمذموم منه نوع خاص ، أما ما عداه فمحمود .

الرسول والشعر

وقد كان رسول الله يستحسنه ، ويستنشده أصحابه ، ويُمدح به ، ويثيب عليه ، ويقول : « هو ديوان العرب »[1] وهو القائل : « إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحراً »[2] ، والقائل « الشعر كلام من كلام العرب جزل ، تتكلم به فى نواديها ،

---

(١) الجمهرة ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق . تفسير الخازن ٣/٣٧٤ .

وتَسُلُّ به الضغائن بينها »[١] . روى الترمذى عن جابر بن سَمُرة قال : « جالستُ النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة . فكان أصحابه يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت ، وربما تبسم معهم »[٢] . ورُوى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد ، يقوم عليه قائماً ، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٣] . وروى مسلم عن عائشة قالت : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هجاهم حسان فشفى واشتفى ، »[٤] . يعنى المشركين وشعراءهم . بل إنه دعا حسان إلى هجائهم . ودعا له بالتأييد فيه ، فقال له : « اهجهم وروح القدس معك »[٥] . وأنشد النابغة الجعدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

بلغنا السماءَ مجدُنا وجدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فأعجب به[٦] وقال له :

فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة بك يا رسول الله . قال : نعم . إن شاء الله ، فقضى له بالجنة بسبب شعره ، فلما قال :

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له النبي : أجدت . لا يفضض الله فاك . قالوا فلقد رئى وقد أتت عليه مائة سنة أو تزيد يوما انفض من فيه سن[٧] .

وأنشده حسان بن ثابت ، وهو يجاوب عنه أبا سفيان بن الحارث قوله :

هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاءُ

---

(١) الجمهرة ص ١٤ والعمدة ١/١٠ .
(٢) أبجد العلوم ص ٢٠٣ . تفسير الخازن ٣/٣٧٤ .
(٣) أبجد العلوم ص ٢٠٣ .
(٤) المرجع السابق .
(٥) الجمهرة ص ١٤ .
(٦) الأغانى ٤/١٢٩ . وفى العمدة ١/٢٨ « فغضب النبى » .
(٧) الأغانى ٤/١٢٩ ، الجمهرة ص ١٦ . القنوجى : أبجد العلوم ٢٠٣ – العمدة ١/٢٨ .

فقال له : جزاؤك عند الله الجنة يا حسان .

فلما قال :

فإن أبى ووالدَه وعرضى لعرض محمد منكم وِقـــاء

قال له : وقاك الله حرَّ النار . فقضى له بالجنة مرتين فى ساعة واحدة ، وسبب ذلك شعره[١] .

وقيل لرسول الله إن أبا سفيان بن الحارث يهجوك ، فقام عبد الله بن رواحة فقال : يا رسول الله ائذنْ لى فيه ، فقال : أأنت الذى تقول « فثبَّتَ الله » قال : نعم ، يا رسول الله ، أنا الذى أقول :

فثبَّت الله ما أعطاك من حَسَن تثبيت موسى ونَصرًا كالذى نُصروا

فقال : وأنت فعل الله بك مثل ذلك . قال فوثب كعب بن مالك . فقال : يا رسول الله ائذن لى . فقال : أنت الذى تقول « همَّت» قال : نعم يا رسول الله ، أنا الذى أقول :

هَمَّتْ سَخِينةُ أن تُغالِبَ ربَّهـا ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّب[٢]

فقال : أما إن الله لم ينس ذلك لك[٣] .

وخرج النبى على كعب بن مالك وهو ينشد ، فلما رآه كأنه انقبض ، فقال : ما كنتم فيه ؟ فقال كعب : كنت أنشد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشد ، فأنشد حتى أتى على قوله « مُقاتلنا عن جذمنا كل فَخْمة » فقال رسول الله : لا تقل مقاتلنا عن جذمنا ، ولكن قل « مقاتلنا عن بيتنا »[٤] ووقف رسول الله بباب كعب بن مالك ، فخرج فأنشده ، ثم قال : إيه ، فأنشده ،

---

(١) العمدة ١/٢٨ .

(٢) السخينة : طعام يتخذ من الدقيق دون العصيدة فى الرقة وفوق الحساء ، وكانت قريش تعير بها لاقتصارها عليها فى الأزمة . حتى صار اللفظ لقباً لها ، وهى المرادة به هنا .

(٣) الأغانى ١٥/٢٨ .

(٤) المرجع السابق .

وفى سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ١٤٣ أن كعباً قال : مجالدنا عن جذمنا كل فخمة فقال رسول الله : أيصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ، فقال كعب : نعم فقال رسول الله : فهو أحسن .

ثلاث مرات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لهَذَا أشَدُّ عليهم من وقع النبل »[١] . وجاء حسان بن ثابت وكعب وابنُ رواحة وغيرهم من شعراء المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الله أنزل فى الشعر ما أنزل ، فقال رسول الله: « إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نَضْحُ النَّبْل »[٢]. ودخل رسول الله مكة فى عمرة القضاء، وابن رواحة يمشى بين يديه وهو يقول :

خَلُّوا بنى الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يُزيلُ الهامَ عن مَقِيله ويُذْهلُ الخليلَ عن خليله

فقال عمر : « يابن رواحة . بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حرم الله تقول الشعر ! » فقال رسول الله « خل عنه يا عمر ، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل »[٣] .

ومر عمر بن الخطاب فى المسجد بعد وفاة الرسول وحسان ينشد فيه ، فأنكر عليه عمر ، فقال حسان : لقد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال : أنشدك الله ، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أجب عنى ، اللهم أيده بروح القدس » . قال : نعم[٤]. وروى عمرو بن الشريد عن أبيه ، قال : ردِفت وراء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هل معك من شعر أمية بن أبى الصلت شىء . قلت : نعم . قال : هيه ، فأنشدته بيتاً ، فقال : هيه ، ثم أنشدته بيتاً ، قال : هيه ، حتى أنشدته مائة بيت ، فقال : « لقد كاد يسلم فى شعره »[٥] . فلم يمنع كفره الرسول من استحسان شعره واستنشاده ، وهو الذى قال فيه : « آمن لسانُه وكفر قلبُه »[٦] .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) تفسير الخازن ٣/٣٧٣ . القنوجى أبجد العلوم ص ٥١٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) القنوجى : أبجد العلوم ص ٢٠٧ .
(٥) الخازن : تفسيره ٣/٣٧٤ — القنوجى : أبجد العلوم ص ٢٠٧ .
(٦) القنوجى : أبجد العلوم ص ٢٠٧ .

وجاء ولد يشكو أباه فى مال له إلى رسول الله، فأنشده الوالد أبياتاً قالها فى ابنه . وهى :

غَذَوْتُك مولوداً ، وعُلْتُكَ يافعاً ... تُعَلُّ بما أَحْنو عليك وتُنهَل
إذا ليلةٌ نابَتْكَ بالسُّقم لم أَبِتْ ... لسُقْمِكَ إلا ساهرًا أَتَمَلْمَل
تخافُ الردى نفسى عليك،وإنها ... لتعلمُ أَن الموتَ حَتْمٌ مُوَكَّل
كأَنّى أَنا المَطْروقُ دونَك بالذى ... طُرِقْتَ به دونى فعينِىَ تَهْمَل
فلما بلغتَ السن والغايةَ التى ... إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤَمِّل
جلعتَ جزائى غِلظةً وفظاظةً ... كأَنك أَنت المُنْعِمُ المتفضِّل
فليتك إذْ لم تَرْعَ حَقَّ أُبُوَّتِى ... فَعَلْتَ كما الجارُ المجاورُ يفعل

فبكىٰ رسول الله، ثم أخذ بتلابيب ابنه، وقال له: « اذهب فأنت ومالك لأبيك »[1]

وقدم عمرو بن سالم الخزاعى على الرسول مستنصراً ، حين أغارت قريش على خزاعة وكانت فى حلف النبى ، فأنشده :

يارَبِّ إِنى ناشِدٌ محمدا ... حِلْفَ أَبينا وأَبيه الأَتْلَـدا
إن قريشاً أَخلفوكَ الموعدا ... ونَقَضُوا ميثاقَك المُؤَكَّدا
وهم أَذلُّ وأَقلُّ عـددا ... فانصرْ هَدَاك اللهُ نصرًا أَيِّدا

فدمعت عينا رسول الله ، وخرج بمن معه لنصرهم[2] .

وعرضت قُتَيْلة بنت النضر للنبى وهو يطوف ، فاستوقفته . وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وقالت تبكى أباها النضر بن الحارث ، الذى قتل بعد أن أخذ أسيراً يوم بدر :

أَمحمدٌ يا خيرَ ضِنْء كريمةٍ ... فى قومها ، والفَحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ ، وربما ... منَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ

(١) القنوجى : أبجد العلوم ص ٢٠٤ .
(٢) الجمهرة ص ١٦ .

أو كنتَ قابلَ فِديةٍ فليُنْفِقَنْ بأَعزِّ ما يَغْلُو به من يُنْفِقُ
فالنضر أقربُ من أَسرتَ قرابةً وأَحَقُّهُمْ إن كان عِتْقٌ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سيوفُ بنى أَبيه تَنُوشه لله أَرحامٌ هناك تَشَقَّقُ

فقال رسول الله . لو سمعت شعرها هذا قبل قتله لمننت عليه[1] .

وهذا هو كعب بن زهير يهجو الرسول ، فيهدر دمه ، ويتنحى الصحابة عن الشفاعة فيه ، فيقبل على الرسول عائذاً به ، منشداً قصيدته :

بانت سعادُ فقلبى اليومَ مَتْبولُ مُتَيَّمٌ إثرها لم يُفْدَ مَكْبول

فتكون أحسن الوسائل إلى الشفاعة ، وأوثق الذرائع إلى الصفح عنه ، وقد تغزل فيها بسعاد ، وشبه رضابها بالخمر ، وكان جزاؤه عليها أن خلع الرسول عليه بردته ، كما أجزل لحسان من قبل مثوبته .

وقد أصلح الرسول لكعب بعض قوله حين أنشد :

إن الرسول لنورٌ يُستضاءُ به مُهَنَّدٌ من سيوف الهند مسلول

فجعل « سيوف الله » بدلاً من « سيوف الهند »[2] .

وها نحن أولاء نرى أن الرسول كان يرى فى الشعر حكمة وجمالاً ، ويستعذبه ، ويستنشده أصحابه ، ويُصلح منه ، ويشجع عليه ، وكان إلى هذا يراه سلاحاً بتّاراً فعالاً فى محاربة المشركين ، ونوعاً من أنواع الجهاد فى سبيل الله ، فاستخدمه أداة من أدوات الإسلام السياسة فى حربه مع أعدائه ، فأجدى ما أجدى السيف ، ونال منهم ما شاءالله أن ينال ، وكان موقفه هذا من الشعر سبباً فى حفظه وروايته ، والعناية بآثاره بعد الإسلام .

الرسول وقول الشعر

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعر بهذه المثابة ، ولكنه وهو أفصح العرب كلهم لم يعط طبيعة شعرية ، ولم يكن ينشد بيتاً من الشعر تاماً على وزنه ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٣/٤٤ . العمدة ١/٣٠ .
(٢) القنوجى : أبجد العلوم ص ٢١١ .

إنما كان ينشد الصدر أو العجز فحسب ، فإن قال البيت كاملا كسره ، ولم يتعهد إلى إقامة وزنه[١] .

كان يقول : أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ ثم يسكت عن عَجُز البيت[٢].

وقالت عائشة: كان النبي يتمثل من الشعر ببيت أخي بني قيس طرفة العبدي فيقول :

ستُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأْتيكَ من لم تُزَوِّدِ بالأَخبار

فقال أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله ، فقال : « إني لست بشاعر ، ولا ينبغي لي»[٣] . وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بصدر هذا البيت على هذه الصورة : « كفى بالشيب والإسلام للمرء ناهياً » فقال أبو بكر : إنما قال الشاعر : « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً » . فقال عمر : أشهد أنك رسول الله . يقول الله : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »[٤] .

وجاء عباس بن مرداس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أنت القائل:

فأَصبح نَهْبى ونَهْبُ العُبَيْـ ـد بين الأَقرع وعُيَيْنَة[٥]

فقال أبو بكر : أشهد إنك كما قال الله « وما علمناه الشعر وما ينبغي له »[٦] .

وقد عمل رسول الله بيديه في بناء مسجده بالمدينة . والمسلمون يعملون معه ، وهم يقولون :

---

(١) تفسير الطبري : جامع البيان ١٩/٢٣ — الخطيب الشربيني : السراج المنير ٣/٢٩٤ — الرازي : التفسير الكبير ١١١/٧ . النيسابوري : هامش الطبري ١٩/٢٣ — الزمخشري : الكشاف ٢٩٢/٣ .

(٢) القنوجي : أبجد العلوم ص ٢١٠ .

(٣) الخطيب الشربيني : السراج المنير ٢٩٤/٣ . الرازي : التفسير الكبير ١١١/٣ — الطبري : جامع البيان ١٩/٢٣ — النيسابوري : هامش الطبري ٣٢/٢٣ .

(٤) الخطيب الشربيني : السراج المنير ٢٩٤/٣ .

(٥) العبيد . اسم فرس عباس .

(٦) ابن هشام : السيرة النبوية ١٣٧/٤ .

لا عيشَ إلا عيشُ الآخرة اللهم ارحم الأَنصار والمهاجرة

فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارحم المهاجرين والأنصار[١] .

وعمل المسلمون فى حفر الخندق حول المدينة ، وارتجزوا فيه برجل من المسلمين يقال له جُعَيْل ، سماه رسول الله عَمراً ، فقالوا :

سمَّاه من بعدِ جُعَيْل عَمْـــرا وكان للبائس يوماً ظَهْرًا

والرسول يقول معهم حين يقولون : عمراً . . . ظَهْرا[٢] .

وقال الرسول فى مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع « انزل يابن الأكوع ، فخذ لنا من هُنَيّاتك »[٣] فنزل يرتجز برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

واللهِ لولا اللهُ ما اهتدينا ولا تصدقنـــا ولا صَلَّينا

إنا إذا قومٌ بَغَوْا علينـــا وإن أَرادوا فتنـــةً أَبَيْنا

فأَنْزِلَنْ سكينةً علينـــا وثَبِّت الأَقدامَ إن لاقَيْنا

وكان رسول الله يرفع صوته مردداً : أبينا . . . لاقينا[٤] .

ولم يجر على لسانه صلى الله عليه وسلم مما صح وزنه إلا البيت من الرجز المنهوك والمشطور ، كما جاء عن البخارى ومسلم أنه قال :

أَنا النبيُّ لا كَذِب أَنا ابنُ عبدِ المُطَّلب[٥]

وذلك لأن الرجز فى أصله ليس بشعر ، إنما هو وزن كأوزان السجع ، ومنزلته بين الشعر والنثر ، ولأن الشطرين منه كالشطر من الشعر ، حتى إن الخليل لم يعد المشطور منه شعراً[٦] . وقد وقع هذا القول للنبى اتفاقاً كما يتفق المسجع فى النثر ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/١٤١ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢/٢٢٧ و ٢٢٨ .

(٣) الهناة . يكنى بها عما لا تعرفه ، أو لا تريد الإفصاح عنه وأراد الرسول أن يحدو بهم الإبل ، ولا يكون الحداء إلا بشعر أو رجز .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/٣٤٢ . القنوجى : أبجد العلوم ص ٢١٠ .

(٥) الرازى : ٧/١١١ – أبو السعود : هامش الفخر ٧/٥٢٥ – الخطيب الشربينى : السراج المنير ٣/٢٩٤ .

(٦) الزمخشرى : الكشاف ٣/٢٩٢ .

من غير قصد إلى الوزن ، ولا تكلف للقافية . ولا ينبغى أن يتوهم من ذكره لعبد المطلب قصده إلى إقامة وزن الشعر ، لأن النسبة إلى الجد شائعة ، وبخاصة أن جده كان منه فى مقام أبيه ، فهو الذى كفله ورباه .

أما أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فيقول المفضل الضبي عنهم : « ولم يبق أحد من أصحاب رسول الله إلا وقد قال الشعر وتمثل به »[١] . ويقول الشعبي : « كان أبو بكر يقول الشعر ، وكان عمر يقول الشعر ، وكان على أشعر منهما »[٢] . وفى سيرة ابن هشام[٣] والروض الأُنُف وفى العمدة[٤] وجمهرة أشعار العرب[٥] ، وفى تفسير القرآن للآلوسى[٦] شعر للخلفاء الراشدين .

(ح) الشعراء الذين أدركهم الإسلام وأثره فى شعرهم

وقد اختلف تأثر شعراء الجاهلية الذين أدركهم الإسلام فى معانيهم وفى أساوبهم به ، لاختلاف بيئاتهم الشعرية ، وتبعاً لمبلغ اتصالهم بالإسلام وتأثرهم به ، ومدى خضوعهم لحوادثه ، وتغلغل روحه فيهم ، وحاول بعضهم أن يفيد منه فى معانيه وأساوبه ، فكان للأنصار فى هجاء قريش مذهبان ، أحدهما يوشك أن يكون جاهلياً ، يعارضون به هجاة قريش بذكر الوقائع والأيام والمآثر والأحساب والأنساب ، ويعيرونهم المثالب ، ويمثله حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، والآخر إسلامى يهجوهم بالكفر والضلال والبعد عن الحق والهدى ، ويمثله عبد الله بن رواحة ، فكان أشد القول عليهم إذ ذاك قول حسان وصاحبه ، وأهونه قول ابن رواحة ، لأنهم جاهليون لا يفقهون إلا معنى جاهلياً ، فلما أسلموا صار أشد القول عليهم قول ابن رواحة[٧] . ولكن أسلوبهم ظل فى جملته جاهلياً لم يستطع العهد الجديد بحوادثه العظيمة أن يغير منه ، لأنه ثمرة ملكات عتيدة استوت وتم نضجها من قبل ، وليس من الهين

---

(١) القرشى : جمهرة أشعار العرب ص ١٩ .
(٢) الخازن : تفسيره ٣/٣٧٤ .
(٣) ٢/١٤٢ و ٢٤٢ و ٢٥٦ و ٤/١١ و ١٧٤ و ٢٠٦ و ٢٣٦ .
(٤) ١/١٢ — ١٤ .
(٥) ص ١٩ .
(٦) ١٩/١٤٨ و ١٤٩ .
(٧) انظر الأغانى ٤/٤ .

الانسلاخ عن المواهب الأصيلة التى رسخت فى النفوس ، وتغير ملكات الشعر ومواهبه كتغير الطبائع لا يتم إلا على يد جيل جديد ، لذلك نرى الأسلوب الجاهلى ظل خالصاً عند بعض الشعراء كالحطيئة والخنساء وكعب بن زهير وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وشعراء مكة وشواعرها[١] . ونرى أن الحطيئة كان أقل هؤلاء جميعاً تأثراً بالإسلام ، وأكثرهم استمساكاً بجاهليته فى أغراضه ومعانيه وأساليبه وألفاظه ، لجفاء طبعه ، ولأنه لم تكن له برسول الله صحبة ، ولم تتأثر بالإسلام نفسه ، وعاش متنقلا فى القبائل ، يمدح ويهجو ويهدد الناس بشعره ، ويسألهم العطاء الجزيل .

أما لبيد فقد حسن إسلامه ، وتنسك وحفظ القرآن ، وهجر الشعر ، وأقام بالبادية على إسلامه ، يذكر لقومه البعث والجنة والنار ، ويقرأ لهم القرآن . كتب عمر بن الخطاب إلى المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة : أن استنشد من قبلك من شعراء مصرك ما قالوه فى الإسلام ، فأرسل إلى لبيد ، فقال : أنشدنى . فقال : إن شئت ما عنى عنه ، يعنى الجاهلية ، فقال : لا . أنشدنى ما قلت فى الإسلام ، فانطلق فكتب سورة البقرة فى صحيفة ثم أتى بها ، وقال : أبدلنى الله هذه فى الإسلام مكان الشعر[٢] .

وقالوا : لم يقل لبيد فى الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :

ما عاتب الحرُّ الكريمُ كنفسه والمرءُ يُصلِحُه الجليسُ الصالح

وقيل هو :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيتُ من الإسلام سربالا[٣]

ولكن روى أنه أوصى ابن أخيه حين حضرته الوفاة بوصاته ، ثم أنشد :

وإذا دَفَنتَ أَباك فاجـ ـعل فوقه خشباً وطيناً
وسقائفاً صُمًّـا روا سِيهـا يُسَدِّدْنَ الغُضونا

---

(١) الشايب : تاريخ الشعر السياسى ص ٨٢ .
(٢) الأغانى ١٤/٩٤ .
(٣) المرجع السابق .

ليقينَ حُرَّ الوجهِ سَفْ سافَ الترابِ ولن يقينا[1]

وأنه رثى نفسه قبل موته فقال لابنتيه حين حضرته الوفاة :

تمنَّى ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضر ؟
فإنْ حان يوماً أن يموت أبوكما فلا تَخْمِشَا وجهاً ولا تَحْلقا شَعَر
وقولا هو المرءُ الذى لا حليفَه أضاع ولا خان الصديقَ ولا غَدر
إلى الحَوْل ، ثم اسمُ السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر[2]

وأما النابغة الجعدى فكان فى جاهليته ينكر الخمر ، ويهجر الأزلام والأوثان ويذكر دين إبراهيم ويستغفر ويصوم ، فلما جاء الإسلام لم يكن أثره فى شعره بيِّن الوضوح ، لقرب منحاه الجديد من ديدنه القديم .

وأما حسان بن ثابت فكان شاعر الرسول ، ندبه للرد على شعراء المشركين ، ودعا له بالتأييد ، وأقام له منبراً بمسجده ينشد من فوقه شعره ، ولابد أنه قد حاول من أجل موقفه هذا أن يصبغ شعره بالصبغة الإسلامية فى أغراضه ومعانيه وأساليبه وألفاظه ، وأن يفيد من القرآن فى ذلك ما استطاع ، وسنرى من دراستنا هذه مدى نجاحه فيما قصد إليه ، ومبلغ تأثره بالإسلام والقرآن .

---

(١) الأغانى ١٤/٩٧ .
(٢) الأغانى ١٤/٩٨ .